﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾

[الأنبياء: 30]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تـأكـيـدُ أمـرِ التّوحيد بذكرِ الدَّلائل الأرضيَّةِ والسّماويَّة

لمّا نزّه الله تعالى ذاتَه عن الشّريك شَرَعَ الآنَ في الدَّلائِلِ الدّالَّةِ على وُجودِ الصّانِعِ، وهذه الدَّلائِلُ أيضًا دالَّةٌ على كَوْنِه مُنَزَّهًا عَنِ الشَّريكِ، لِأنَّها دالَّةٌ على حُصولِ التَّرْتيبِ العَجيبِ في العالَمِ، ووُجودُ الإلَهَيْنِ يَقْتَضي وُقوعَ الفَسادِ، فهذه الدّلائل تدلُّ من هذه الجهة على التَّوْحيدِ، فتَكونُ كالتَّوْكيدِ لِما تَقَدَّمَ، وفيها أيْضًا رَدٌّ على عَبَدَةِ الأوْثانِ مِنْ حَيْثُ إنَّ الإلَهَ القادِرَ على مِثْلِ هَذِه المَخْلوقاتِ الشَّريفَةِ كَيْفَ يَجوزُ في العَقْلِ أنْ يُعْدَلَ عَنْ عِبادَتِه إلَى عِبادَةِ حَجَرٍ لا يَضُرُّ، ولا يَنْفَعُ، فهذا وجهُ مناسبة الآية لما قبلها[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَتْقًا﴾: يدور معنى الكلمة على الضّمّ والالتحام خلقةً كان، أو صنيعةً، ومنه المرأةُ الرّتقاء المنضمّة الشّفرين، والرَّتقُ هو الشَّيءُ المُصْمَتُ الذي يكونُ بعضُه مضمومًا إلى بعضٍ، والرَّتْقُ الظُّلمةُ، ولمّا كان الرّتقُ ضدَّ الفتقِ كان إصلاحُ الفتقِ وإلحامُه رتقًا، و﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ بمعنى كانتا شيئًا واحدًا وحقيقةً متّحدةً، ليس بينهما ثقبٌ، أي: كانتا مصمتًا مُلتَئِمًا[2].

2) ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ﴾: (فتق) أصْلٌ يدلُّ على فتْحٍ في شَيْءٍ، أو هو

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 136، والبقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 411.

(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 285، وابن جرير، جامع البيان: 18/ 430، وأبو عمر الزاهد، ياقوتة الصراط، ص: 359.

الفصلُ بين المتّصلين، وهو ضدّ الرّتق، ويقال للصُّبْح فتقٌ؛ لبدوِّ الفجر فيه من بين الظّلمةِ، وأفْتَقَ القمر إذا صادف فتقًا فطلع منه، وأفتق قَرنُ الشَّمس: إذا أصاب فتقًا من السَّحاب فبَدا مِنْهُ، ويقال: فتَق الخياطَةَ يفتِقُها إذا فتحها، وفصل بين الجزئين، ومنه قولهم: فُتِقَتْ السَّماءُ بالقَطْرِ، والأرضُ بالنَّبتِ، ولمّا كان الفتقُ ضدَّ الرّتقِ كان إصلاحُ الفتقِ بالرَّتقِ، وإصلاحُ الرَّتقِ بالفتقِ، ومعنى ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ ففصلناهما بعد أن كانا متّصلين[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

خلقُ الله يدلُّ على وحدانيّتِه تعالى

شرع الله تعالى في هذه الآيات في ذكر الدّلائل الكونيّة على وجودِه تعالى وعلى وحدانيَّتِه وتفرّده بالألوهيَّة، فقال مقرِّرًا: ألم يعلمِ الذين كفروا أنَّ السّماوات كانت لاصقةً بالأرض لا فضاء بينهما، أي: ملتحمتين متّصلتَين، ففصلناهما، وأزلنا اتّحادَهما، وأحْيَيْنا بِالماءِ الَّذي يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيّ مِنَ الحَيَوانِ والنَّباتُ والشَّجَرُ، أفلا يصدّقون بذلك، مع أنَّ الدّلائلَ بين أيديهم، وقد أتاهم الخبرُ به عن الله تعالى، فيقرّوا بألوهيّة من فعل ذلك ويفردوه بالعبادة.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستفهام المجازيِّ:

توبيخُ الكافرين على عدمِ إيمانِهم مع ظهورِ الدّلائلِ على ألوهيَّةِ الله وتوحيدِه

يحتملُ الاستفهام في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أن يكون تقريريًّا، فيكونَ استفهامًا بمعنى الإثبات، أي: (قد رأى الذين كفروا)، وفائدةُ مجيء الاستفهام بمعنى الإثبات توبيخُهم على عدم إيمانِهم مع ظهور الدّلائل على ألوهيَّة الله وتوحيدِه[2]، أو يكونَ

(1) أبو حيان، تحفة الأريب، ص: 250.

(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 10/ 386.

استفهامًا تقريريًّا عن إعراضِهم عنِ استماعِ الآياتِ التي وصفتْ بدءَ الخلقِ فيذعنوا إلى الإيمانِ باللّه وتوحيدِه، كما يحتملُ أن يكون استفهامًا إنكاريًّا بمعنى أنَّه ينكرُ عليهم إهمالَهم النّظرَ سواء أكان بالمشاهداتِ البصريَّة التي تورث العلمَ بزيغ العقائدِ الباطلة التي كانوا ينتحلونها، وصدقِ ما جاء به رسولُ اللّه ﷺ أم كان بالنّظر العلميّ، الذي يدلُّ بلوازمِه على توحيد اللّه تعالى[1].

تنوّعُ القراءة القرآنيّةِ بإثبات الواو وحذفِها وثراءُ المعنى:

عطفُ الدّليل على الدليل يُقوّيه، والاستئنافُ إقامةٌ للحجّة على الكافرين

قَرَأ ابْنُ كثير ﴿أَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بغَيْر واو، وقَرَأ الباقونَ بالواو أي: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾[2]، فمن قرأ بالواو كانت الجملة معطوفةً على ما قبلَها عَطْفَ الاسْتِدْلالِ على الخَلْقِ الثّاني بالخَلْقِ الأوَّلِ، وما فيه مِنَ العَجائِبِ[3]، أو تكونُ من عطف الاستدلال على وجود اللّه ووَحدانيَّتِه في قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: 22] لتضمّن قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ التّوْبيخَ لِمَنِ ادَّعَى مَعَ اللّه آلِهَةً، ودَلالَةً على تَنْزيهِه عَنِ الشَّريكِ، والجُمل التي بين الآيتين اعتراضيةٌ، وعلى قراءة إسقاطِ الواو تكون الجملةُ استئنافًا، وابتداءَ كلامٍ للتّذكير، وإلزامِ الحجّة على الكافرين، والاسْتِفْهامُ على كِلْتا القِراءَتَيْنِ يحتمل أن يكون تقريريًّا، أو إنْكاريًّا، فلا يتأثّر معنى الاستفهام بإثباتِ الواو أو إسقاطِها.

دلالةُ الرّؤية في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾:

إشارةُ القرآن إلى أنَّ العلمَ بأنَّ السّماواتِ والأرضَ كانتا رتقًا ممكنٌ بطريق العلمِ والنّظر

يحتملُ أن يكون لفظُ الرّؤية في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بمعنى العلم، فإذا كان الاستفهام على معنى التّقرير كان المعنى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 53.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 323، وابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 467. قال الداني: "في مصاحف أهل مكة ﴿أَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بغير واو بين الهمزة واللام، وفي سائر المصاحف ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بالواو"، يُنظر، الداني، المقنع، ص: 108.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 52.

إثباتَ علْمِهم بأنَّ السّماواتِ والأرضَ كانتا رتقًا، ويحتملُ أن تكون الرّؤية بصريّةً، وعلى الوجهين يتوجّه سؤالٌ، فيقال: متى رأوهما - رؤيةَ قلبٍ بمعنى العلم أو رؤيةَ مشاهدة - رتقا حتى جاء تقريرُهم بذلك؟ والجوابُ هو أنَّه لم يقصد إثباتَ علمِهم وتقريرَه أو إثباتَ رؤيتِهم البصرية وتقريرَها، بل هو أسلوبٌ يقصَدُ به إثباتُ ما يخبَرُ عنه بأنَّه محقَّقُ لاشكَّ فيه، وأنَّ التّمكّن من العلم به ممكنٌ بطريق النّظر والتّفكير، فإنَّ المخاطَبين وإن لم يعلموهما لكنَّهم متمكّنون من علمِها إمّا بطريق النّظر والتفكير، فإنَّ الفتقَ عارضٌ مفتقرٌ إلى مؤثّر قديمٍ، وإمّا بالاستفسار من العلماء ومطالعةِ الكتب[1]، أو يقال - كما ذهب الزّمخشري وغيرُه - أنَّه لمّا كان الخبرُ واردًا في القرآن الذي هو معجزةٌ في نفسه، قام مقامَ المعلوم والمرئي المشاهد، ليفيد أنَّ إخبارَ القرآن بهذا الحدثِ الكونيِّ هو معجزةٌ في نفسِه كافٍ في الإيمانِ باللّه تعالى[2].

نكتةُ التّعبير بصيغة المثنّى في قوله ﴿كَانَتَا﴾ و﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾:

السّماوات فُتِقَتْ بمجموعِها عن نوعِ الأرضِ

لم يأتِ الكلامُ بصيغةِ الجمع، فيقال: (أنّ السّماواتِ والأرض كنّ رتقا) ولا (ففتقناهن) مع أنَّ السّماوات جمعٌ بألف وتاء، فجاء اللّفظان بصيغة المثنّى فقال ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾، وسببُه أنَّه لمّا ضَمَّ إلى السّماواتِ الأرضَ، جاء بصيغة المثنّى لأنّهما صنفان، فالسّماوات نوع واحدٌ باعتبار الجنسِ والأرض نوعٌ آخر[3]، ونكتةُ جعل السّماوات صنفًا برأسِه هي الإشارةُ إلى أنَّ السّماوات كلَّها شيءٌ واحدٌ وضَمَّ إليها الأرضَ، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطِر: 41]، وأفادَ

(1) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/ 503، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 65.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 113، وزين الدين الرازي، أنموذج جليل، ص: 337.
(3) معمر بن المثنى، مجاز القرآن: 2/ 87، وابن جرير، جامع البيان: 18/ 433، والزمخشري، الكشاف: 3/ 113.

الكلامُ أنَّ الفتقَ كان لفصلِ السّماوات جميعًا عن الأرض، وليس لفصل كلِّ سماء عن الأخرى.

نكتةُ التّعبير بـ﴿كَانَتَا﴾:

تـأكـيـدُ الأصـلِ يـكـونُ بمعنى التّكوين

عبّر بـ﴿كَانَتَا﴾ في قولِه ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾؛ للإشعار بأنَّ الرّتقَ متمكّنٌ من السّماوات والأرضِ أشدَّ تمكّنٍ، ليستدلَّ به على عظيم القدرة في فتقِهما[1].

سرُّ التّعبير بلفظ ﴿رَتْقًا﴾:

بـرهـانٌ علـميٌّ لنظرية التّكوين المـعـروفـةِ بالانفجارِ الكونيّ العظيمِ

الرَّتقُ هو الملتصِقُ بعضُه ببعضٍ المبهمُ الذي لا صدعَ فيه ولا فتح[2]، وعبّر بالمصدرِ المفرد ﴿رَتْقًا﴾؛ للإشعارِ بأنَّ السّماوات والأرضَ كانتا شيئًا واحدًا مصمتًا، ولم يقل (مرتوقتين) كما هو المناسبُ مع ذكر السّموات والأرض، لدفع توهّم أنَّهما كانا شيئين متباينَين ولم يكونا شيئًا واحدًا، فجاء بصيغة المصدر ﴿رَتْقًا﴾ للدّلالة على المعنى المطلوب، أي: إنَّ السَّماءَ على ما هيَ عليْهِ، والأرْضَ على ما هيَ عليْه كانَتا رَتْقًا.

وليس التّعبيرُ بالمصدر من أجلِ المبالغة في حصول الالتئام، بل هو تعبيرٌ يدلُّ على الإشارة الكونيّة لِما كانت عليه السّماوات والأرضُ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ السّماواتِ والارضَ كانتا موجودتين قبل الفتق، فإنَّه لا يَجوزُ كَوْنُهُما رتقًا إلّا وهُما مَوْجودتانِ، والرَّتْقُ ضِدُّ الفَتْقِ فإذا كانَ الفَتْقُ هوَ الفصلَ والمفارقةَ، فالرَّتْقُ يَجِبُ أنْ يَكونَ هوَ الالتئامَ والاتّصالَ، ويكونُ المراد من الرّؤية على هذا المعنى رؤيةَ القلب التي بمعنى العلم، وفي هذا التفسير بيانٌ لمعجزة من معجزات القرآن إذ أخبر عن آيةٍ كونيَّةٍ لم يكن يعلمُها القوم ولا معاصروهم وقتَ نزول القرآن.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 53.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 79.

وذهب بعضُ المفسّرين إلى أنَّ السّماء قبل المطر رتقٌ والأرضَ قبل النّبات رتقٌ، فإذا مطرت السّماء فقد فتقت وإذا أنبتت الارض فقد فتقت، ويكونُ المرادُ من ﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾ الرّؤيةَ البصريّةَ، ويكونُ الاحتجاجُ بالمحسوس، وهذا التّوجيهُ يناسبُ قولَه بعد ذلك ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ أي: من الماء الذي أوجده الفتقُ فيظهرُ معنى الآية ويتوجّه الاعتبارُ[1]، وعلَى جميعِ التّقاديرِ فالمقصودُ مِنْ ذلكَ أيضًا الاستدلالُ علَى أنَّ الّذي خلقَ السَّماواتِ والأرضَ وأنشأهما بعدَ العدم قادرٌ علَى أنْ يخلقَ الخلقَ بعدَ انعدامِه، قالَ تَعالَى: ﴿*أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء: 99][2].

دلالةُ التّعبير بصيغة المصدرِ ﴿رَتْقًا﴾:

إشعارُ التَّعبير بأنَّ السَّماواتِ والأرضَ كانتا في ظُلمةٍ وقتَ الرّتق

لمّا جاء المصدرُ ﴿رَتْقًا﴾ على معنى الوصف كان بمعنى اسمِ المفعول، والتّقدير: (كانتا شيئًا رتقًا، أي: مرتوقًا)[3]، ونكتةُ التّعبير بالمصدر دون اسمِ المفعول المبالغةُ في الوصف، بمعنى تقرير التصاق بعضِهما ببعضٍ من غيرِ فرجةٍ بينهما والإيذانِ بأنّهما كانا شيئًا واحدًا مصمتًا، ففيه إشعارٌ بالظّلمة التي كانت في داخلِ الرّتق، ويحتملُ أن يكون الكلامُ على حذف مضافٍ، أي: كانتا ذواتَيْ رتق[4].

معنى الفاء ودلالتُها في ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾:

اللـه عـلى كـلّ شيء قادرٌ

الفاء في قوله: ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ عاطفةٌ للتّرتيب والتّعقيب، وجاء التَّعقيبُ بالفاء؛ لأنَّه لم يكن بين الرَّتقِ والفتقِ أمرٌ كونيٌّ آخرُ، وكلُّ شيءٍ من فعلِ اللّه تعالى يكون بقوله تعالى؛ "كن" فيكون ولا فاصل من الزمان بين قول اللّه "كن" وما يكون[5]، فاللّه على كلّ شيء قادرٌ.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 432، والزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 390، والزمخشري، الكشاف: 3/ 113.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 55.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 113.
(4) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 390.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4856.

بديعُ طباقِ الإيجاب:

تباينُ السَّماواتِ والأرضِ حصلَ بالفتقِ، ولا يناسبُ مقابلةَ الرّتقِ إلّا الفتقُ

ورد طباقُ الإيجاب بين لفظي ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ ولفظيْ ﴿رَتْقًا﴾ و﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾، فقد طابق الرّتق بالفتق، وبيانُه أنَّ الفتق هو الفصلُ بين الشّيئين اللّذين كانا ملتئمَين أحدُهما متّصلٌ بالآخر، فإذا فُرِّق بينهما فقد فُتِقا[1]، ويفيد الفتقُ حصولَ الفصل من غيرِ أيّ ضررٍ يحصل في المفتوقَين ومنه فتق الخياطةِ، ولهذا لم يقل (فشققناهما)؛ لأنَّ الانشقاق هو التّصدّعُ والفطور والفروج، وفيه معنى فسادِ المشقوقين، مع أنَّ الكلامَ على بديع الخلقِ بالفتقِ وبدءِ الحياةِ وأثرِ الفتقِ في انتفاعِ النّاس من آثارِه، وقد عبِّرَ بالانشقاق في بيانِ ما يترتّب على القولِ بنسبة الولد لله تعالى من انهيار التّركيب البديع ودمارِ المشقوقِ، كما في قوله تعالى ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠﴾ [مريم: 88 - 90]، وقال تعالى في بيان بدءِ انقراضِ العالَمِ الدُّنْيَويِّ بجَميعِ نِظامِه ومَجْموعِ أجْسامِه والإيذانِ باختلالِه ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ [الانشقاق: 1] وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥﴾ [الفرقان: 25]، فاستعمل الفتق لبدءِ الحياةِ، واستعمل الشقَّ للإيذانِ بنهايتِها، ولم يقل: ففصلناهما؛ لأنَّ الفصل يومئُ إلى وجودِ مفصلٍ بينهما وهو لا يناسبُ الرّتق، فكان التّعبير بالفتق هو المناسبَ للمقابلة بالرّتقِ لا غيره، فلكلِّ كلمةٍ مع صاحبتِها مقامٌ، فتنتظم الإشاراتُ الكونيَّة في القرآن مع اختيار اللّفظة المناسبةِ، وأفادَ التّعبيرُ بالفتق كذلك عدمَ فسادِ المفتوقَين بعدَ الفتقِ ومنه فتقُ الخياطُ للثّوب، وكذلك أفاد ذكرُ الفتقِ أنَّ ظهور السَّماوات والأرضِ وبدوَّهما بعدَ ظلمةٍ كانتا فيها، فجاء أسلوبُ الطّباق على أحسن ما يكون وأتمّه، وعبّر بالفعلِ

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 15/ 56.

الماضي الدّالِّ على حدَثانِ الفتقِ إيماءً إلى حدوثِ الموجوداتِ كلِّها وأنَّه ليس منها أزليٌّ[1].

وقد عبّرَ بالرّتق عنِ التئام السّماوات والأرضِ؛ للإشعار بأنَّ الرّتق لا يكون إلّا بين متقابلَين، ولمّا كان الفتق ضدَّ الرّتق عبّر بلفظ ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ للإشعار بأنَّه لا يفصلُ بين شيئين كانا رتقًا من غيرِ ضررٍ، أو أذىً يحصل في المرتوقين إلّا بالفتق، فانتظمت الإشارةُ العلميّةُ في الآية بدقّة اختيار اللّفظ المعبّر عنِ المعنى العلميّ في النّظم القرآنيّ، كما أفاد التّعبيرُ أنَّ تباينَ السَّماوات والأرض حصلَ بالفتقِ، كما أفاد التّعبير بالطّباق بين ﴿رَتْقًا﴾ و﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ أنَّ المادّة صارت شيئين اثنين لاثالثَ لهما؛ لأنَّه عبَّرَ بصيغة المثنى مع اعتبار لواحقِهما المعبَّرِ عنِ الجميع بالخليقةِ.

معنى الواو ودلالتُها، في ﴿وَجَعَلْنَا﴾:

التّرقّي والتّنويعُ هو السّبيلُ للبيانِ عن إبداع خلقِ الله

الواو لعطف جملةِ ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ على ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ من عطف الجملةِ الاسميّةِ على الاسميّةِ بتقدير (أنّا)[2]، ويكون الاستفهامُ المجازيّ المرادُ به التّقريرُ واردًا على جملة ﴿وَجَعَلْنَا﴾ كذلك، وعلى ما بعدها، والتقدير: (أو لم ير الذين كفروا أنّا جعلنا من الماء كلَّ شيءٍ حيٍّ)، وتفيد الواو التّرقّي والتّنويعَ في الإخبار عن إبداعِ خلق الله تعالى مع تقرير علمِ الذين كفروا بما يشاهدونه من بدائع هذا الخلقِ العظيم.

وعطفُ الدّليل المحسوسِ المشاهدِ على الغيب تحقيقٌ له

ويلمحُ في الواو في ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ التّرتيبَ والتّرتّبَ، أي: إنَّ جعلَ الله تعالى كلَّ شيءٍ حيٍّ من الماء وبدوَّ الأمرِ وظهورَه كان بعدَ فتق السّماوات والأرضِ، فكأنَّ فتق السّماوات والأرض كان سببًا لوصف الماء بهذه الصّفة، وفيه إشعارٌ بأنَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 54.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 511.

الحياةَ بدأت بعدَ فتقِ السّماوات والأرضِ، ولمّا كان هذا بأمر الله ﷻ وقدرتِه، وكانت هذه الواقعةُ لم يشهدها إنس ولا جانٌّ وكان في استطاعة المشركين أن يكذِّبوها أتبعَ هذه الحقيقةَ بحقيقةٍ يؤمن بها كلُّ ذي عقل، وهي توقُّفُ شؤون الحياة والأحياء على الماء، فذكر الدّليلَ الأوّلَ الذي يُشعِرُ أنَّ في إمكانِ الكافرين أن يعلموه، ثمَّ أردفَه بالدَّليلِ الثّاني المشاهَد المحسوس، فكان ذكرُ الحقيقة المشاهدة دليلًا على التّسليم بالحقيقة الأولى التي لم يرها أحدٌ يوم حدثت.

إيثارُ التّعبير بلفظِ ﴿وَجَعَلْنَا﴾:

لفظُ الجعلِ يدلُّ على الإبداع في الخلقِ

أوثر التّعبيرُ بلفظ ﴿وَجَعَلْنَا﴾ على خلقنا؛ لأنَّه لمّا كان الجعلُ في الغالب هو حالة بعدَ الخلقِ، أي: هو إيجاد شيءٍ من شيءٍ عبِّرَ بعد فتق السّماوات والأرضِ بالجعل دون غيرِه، كما أنَّه لم يقل: (خلقنا) قصدًا إلى معنى الإبداعِ الذي يدلُّ على ألوهيَّة الله تعالى ووحدانيَّتِه، وللتّنبيه على عجيب خلقِه تعالى وأنَّه لا يقدرُ على مثلِه إلّا الله الواحدُ الأحدُ.

دلالةُ التّعبير بالمسنَد إليه (نا) الدّالِّ على التّعظيم:

جعلُ الماء مادَّةَ الحياة أو ما يكونُ به قوامُها دليلٌ على وجودِ اللهِ تعالى ووحدانيّتِه

أفاد مجيءُ المسند إليه بصيغة نون العظمة (نا) مع الفعلين ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾، ﴿وَجَعَلْنَا﴾ أنَّ فتقَ السّماوات عن الأرضِ الذي لم يحصل به أيُّ ضررٍ في المفتوقَين لا يقدرُ عليه إلّا الله تعالى وأنَّه من فعلِ الملك الواحدِ الأحدِ، ومثلُه التّعبيرُ بنون العظمة في ﴿وَجَعَلْنَا﴾، فإنَّ جعلَ الماء مادَّةَ الحياة أو ما يكون به قوامُها وسببُها هو من فعل الإله الملك الواحد الأحدِ.

توجيهُ الفعل ﴿وَجَعَلْنَا﴾ بين أن يتعدّى لمفعولٍ أو لاثنين:

تعدّدُ الاعتبار ثراءٌ للمعنى، وإيجازٌ في التّعبير

في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ يحتمل الفعلُ ﴿وَجَعَلْنَا﴾ أن يكون بمعنى خلقنا، فيتعدّى لمفعول واحدٍ، والتّقدير: (وخلقنا من الماء كلَّ شيءٍ حيٍّ)، ويكون ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ حالًا من ﴿حَىٍّ﴾ وهو في الأصل

صفةٌ له، فلمّا تقدَّم عليه صارَ حالًا، ليفيد أنَّ جعلَ كلِّ شيءٍ حيٍّ حالَ كونِه من الماء هو أمرٌ لازمٌ غيرُ منفكٍّ عنه، ويحتمل أن يكون الفعل ﴿وَجَعَلْنَا﴾ بمعنى صيّرنا فيتعدّى إلى مفعولين، والتّقدير: (صَيَّرْنا كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ بِسَبَبٍ مِنَ الماءِ لا بُدَّ لَهُ مِنْهُ)، فيكونُ الجارّ والمجرور ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ مفعولًا ثانيا قُدّم على المفعول الأول للاهتمام به[1].

معنى ﴿مِنَ﴾ ودلالتُها:

الماءُ ابتداءُ الحياة وسببُها لكلِّ حيٍّ

تحتملُ ﴿مِنَ﴾ في قوله ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ أن تكون سببيّةً، والمعنى: (وجعلنا بسبب الماء كلَّ شيءٍ حيٍّ)، ويجوز أن يكون الفعلُ على هذا التّوجيه بمعنى (خلقنا) أو (صيّرنا) كما تحتمل ﴿مِنَ﴾ أن تكون ابتدائيّةً[2] بمعنى: (وجعلنا كلَّ شيء حيٍّ مبتدأً خلقُه من الماء)، أي كلُّ شيءٍ حيٍّ خُلِقَ من الماء، ويكون الفعل ﴿وَجَعَلْنَا﴾ بمعنى خلقنا[3].

الغرضُ من حذفِ المضاف إلى ﴿كُلَّ﴾:

من براعةِ بلاغةِ القرآن دلالةُ المتأخّر على حذفِ المتقدِّم

حُذِفَ المضافُ في الكلام في قوله ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾، والتّقدير: (وجعلنا من الماء حياةَ كلِّ شيءٍ حيٍّ)، ولو ذكر المضاف ضَعُفَ النَّظْمُ وانخرمت بلاغتُه؛ لِتَكَرُّرِ لَفْظِ الحَياةِ من غيرِ فائدةٍ، واخْتَلَفَ المقصودُ، لأنَّ المرادَ الحكمُ على الأشياء بالحياةِ بسبب الماء، أو أن يكون المرادُ ابتداءَ حياتِها بالماء كما تقدَّم، فحُذف المضافُ، وجاءت الصّفةُ ﴿حَىٍّ﴾ قرينةً على المحذوف[4]، فجاءتِ الصّفةُ مقيّدةً للعمومِ ليصحَّ المعنى ويدلَّ على المضاف المحذوف.

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 113، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 138، والعكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 917، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 65.

(2) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 917.

(3) الواحدي، التفسير البسيط: 15/ 59، والبغوي، معالم التنزيل: 5/ 316، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 56.

(4) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 4/ 485.

نكتةُ التّعبير بـ: ﴿كُلَّ شَيۡءٍ حَيّٖۖ﴾:

ذوات الأرواح والشّجرُ والنّباتُ لها حياةٌ أو موتٌ وتوصفُ بهما

لمّا كان لفظُ ﴿كُلَّ شَيۡءٍ﴾ عامًّا دلَّ على أنَّ المراد بالحيِّ ما يكونُ من ذوات الأرواح ومن غيرها مثل الزّروع والنّبات والأشجار التي تحيا بالماء، فإنَّ النّباتَ والشّجر من الماء صار ناميًا، وصارَ فيه الرُّطوبَةُ والخُضْرَةُ والنّورُ والثَّمَرُ، ليفيد أنَّ ذوات الأرواح، والشّجر، والنّبات لها حياةٌ، أو موتٌ، وتوصفُ بهما[1].

دلالةُ العمومِ في لفظِ ﴿كُلَّ شَيۡءٍ﴾:

الدَّليلُ إنْ كانَ مُشاهَدًا كانَ أقْرَبَ إلَى التّسليم والإذعانِ وحصولِ المقصود

لفظُ ﴿كُلَّ شَيۡءٍ﴾ في قوله ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۖ﴾ وإنْ كانَ عامًّا، إلّا أنَّ القرينَةَ المُخَصِّصَةَ قائِمَةٌ، فإنَّ الله تعالى قالَ: ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾ [الحجر: 27]، وجاءَ في الأخْبارِ أنَّ الله تَعالَى خَلَقَ المَلائِكَةَ مِنَ النّورِ، فيكونُ اللّفظ من العامِّ المخصوص بالمشاهدةِ وبالقرينة الخارجيَّة، ويكونُ التّعبيرُ بلفظ العموم فيما هو مشاهدٌ، فإنَّ الدَّليلَ إنْ كانَ مُشاهَدًا مَحْسوسًا كانَ أقْرَبَ إلَى التّسليم والإذعانِ وحصولِ المقصود[2].

بلاغةُ الاستفهامِ المجازيّ في قوله ﴿أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

تنوّعُ المقاصدِ المتولّدةِ منَ الاستفهامِ الإنكاريِّ

الاستفهامُ في قوله ﴿أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾ إنكاريٌّ، بمعنى (إنكار ماهم عليه من عدم الإيمانِ بما دعاهم إليه رسول الله ﷺ من وحدانيَّة الله تعالى)، ويتولَّدُ من الإنكارِ توبيخُهم وتقريعُهم وتبكيتُهم والتعجّبُ من ضعفِ عقولِهم ومن حالِهم في عدم إيمانِهم مع قيام الأدلة وظهورِها على وجوب الإيمانِ بالله تعالى وتوحيدِه[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 434، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 138.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 138، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 425.
(3) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 390، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 425، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4856.

معنى الفاء ودلالتُها:

الحثُّ على الإيمان وتحصيلِه والتّرغيب فيه

الفاء في قولِه ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ لترتيب التّوبيخ بعدم الإيمان على ما قبلها، وهي مؤخَّرةٌ عن تقديم، والمعنى: (فألا تؤمنون)، وأخّرت الفاء لوجوب الصّدارة في الكلامِ للاستفهام، ليفيد العطفُ بالفاء أنَّ ما تقدَّم ذكرُه من تصرِّفه تعالى في هذين الكونَين من دلائل الإيمانِ يتسبَّبُ عنه إنكارُ عدمِ إيمانهم، كما أنَّ في الاستفهام المجازيّ حثًّا على الإيمان، وتحصيله والتّرغيب فيه.

الغرضُ من حذف متعلَّقِ الفعل ﴿يُؤْمِنُونَ﴾:

الإيمانُ إذا أُطلق انصرف إلى الإيمان الصّحيح، وهو الإيمانُ بالله، وبوَحدانيَّتِه

أفاد حذفُ متعلَّق الفعل ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ في قوله ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ عمومَ الإنكارِ على المخاطَبين من الكفّار والمشركين، أي: أفلا يؤمنون بأنَّ اللّه تعالى هو المتفرّدُ بالألوهيَّة، وبأنَّ شيئاً من السّماوات والأرضِ وما بينهما، وما فيهما لا يصلحُ للإلهية، لا على وجه الشّركة، ولا على وجه الانفراد، وبأنَّ كلَّ ما سواه من مخلوقاته مقهورةٌ تحت ملكوته وقدرتِه، وبأنَّ الذي جعل من الماء كلَّ شيءٍ حيٍّ قادرٌ على البعث للحساب للثّواب أوِ العقاب[1].

دلالةُ مجيء الفعل بصيغة المضارع:

تجدّدُ الدّلائل تنشيطٌ للإيمان في القلوب

عبِّرَ بصيغة المضارع في قوله ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؛ للإشعارِ بتجدّد دلائلِ الإيمانِ وظهورِها التي تقتضي تجدّدَ الإيمانِ واستمرارَه.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفتق والفصل:

الفتقُ لشيئين ملتئمَين، والفصلُ يكون للشّيء الواحدِ

الفرقُ بينهما هو أنَّ الفتقَ يكون بين شيئين ملتئمَين أحدهما متّصلٌ بالآخر، فإذا فرّق بينهما فقد فُتقا وتباينا، وإن كان الشَّيءُ واحدًا ففرِّقَ بعضُه من بعض قيل قُطِعَ وفُصِلَ وشقَّ ولم يُقل فُتِقَ،

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 414، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 65.

كما أنَّ الفصلَ يدلُّ على أنَّ هناكَ موضعًا للفصل، ومنه مفصلُ الجسدِ، فلا يناسبُ الفصلُ لمعنى الرّتقِ الذي يُطلق على الشّيئين الملتئمَين أي إذا لم يكن بينهما فرجةٌ ولا مفصلٌ، كما أنَّه لو قال في الآية (ففصلناهما) لأفادَ انَّهما كانا موصولَين، وهذا ينافي معنى الرّتقِ[1].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (فتق، فصل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والثلاثون،
سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 33 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-75-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 33 : المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-75-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1130605 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»